الفصل الحادى والخمسون

الموكب الرابع فى مصر وهو موكب العيد ومظاهر البهجة والسرور

والموكب الأول فى مصر هو موكب «دخول وزير مصر إليها» والموكب الثانى هو موكب الاحتفال «بقطع النيل» والثالث «موكب ليلة المحتسب»، أما الموكب الرابع فهو موكب عيد الفطر المبارك، وهى الأيام التى تصبح فيها حسان الدنيا فى أجمل وأبهى زينتهن، ونساء مصر يذهبن لمشاهدة مظاهر الاحتفال بهذا العيد ويعقد زواجهن شريطة ذلك. والشأن فيه لا يختلف عن الشأن فى موكب ليلة المحتسب فلا يمكثن فى منازلهن فى ليالى هذا الموكب.

ولعقد ديوان موكب عيد الفطر المبارك ووقفة عرفات، أقام رئيس فرقة الموسيقى العسكرية السرادقات العظيمة فى ساحة قصر الباشا وأقام مظلة لأفراد فرقته وزين هذه الساحة وفى تلك الليلة أحضر مع أربعين من رجاله الطبول العثمانية السلطانية، وعزفوا المقطوعات الموسيقية فى اثنى عشر مقاما حتى مطلع الفجر، وقدمت القهوة الفاخرة والمشروبات والبخور لكل الأغوات الذين حضروا فى السرادقات.

وطلع الفجر عليهم وهم على هذا النحو. وأدى وزير مصر صلاة الفجر فى قصره وفرش ساحة قصره من الخارج بالحصير وصلى جميع الأشراف والأعيان وأرباب الديوان ركعتى سنة الفجر فى تلك الساحة. ثم قام مؤذن الديوان بتصعيد الآذان وتلى الآية الشريفة الخاصة بالعيد وهى: ﴿ **رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ** ﴾ {المائدة: ١١٤}.

وأقيمت صلاة الصبح ورفعت جميع البسط والحصير، ووقف جميع أعضاء الديوان كل منهم فى مكانه حسب رتبته، وأعد كتخدا الباشا واثنى عشر من الأغوات من ذوى الرتب العالية خلع فرو السمور والعمائم، ولبس الباشا عمامته السليمية المزينة بالجواهر وقبائه الأحمر المزين بالفرو وعلى يمنته ويسرته السلحدار والجوقدار[1] وعندما هم الباشا بالخروج جاء الكتخدا ليقف على يمنته ووقف على يسرته «الشهر حواله»،

(١) الجوقدار: المسئول عن الملابس الصوف.

فوقف السلحدار خلف الباشا وعلى رأسه قلنسوة من اللباد الأحمر الحريرى ويرتدى السروال الشركسى الأصفر والسروال الحريرى المحلى بصفر الأزهار وفى يده سيفه المرصع بالجواهر. وكان الجوقدار كذلك فى أبهى حلة له، ووقف جنبا إلى جنب مع السلحدار خلف الباشا. وجاء اثنى عشر من أغوات قصر الباشا من أصحاب الرتب وفى يد كل منهم سيف وعليهم فرو السمور وتبعوا الباشا وتقدم موكبه كتخدا الجاويشية وبجانبه رئيس فرقة المتفرقة وكذلك رئيس التراجمة وكتخدا البوابين واثنى عشر من أغوات الديوان وفى يد كل منهم عصا من القصب، وأنزلوا الباشا من سلم ديوان قايتباى. وعندما امتطى الباشا صهوة جواده يتقدمه المحتسب وجلادو الصوباشى ماشين، خرج جميع البكوات لاستقباله وأنزلوا الباشا فى ديوان السلطان سليم.

ولكن جان بولاد زاده حسين باشا كان يذهب إلى ديوان السليمية من ديوان قايتباى مشيا تواضعا منه وتبركًا وتيمنا كما كان يفعل أسلافه.

حقا كان ذلك منه تواضع الدراويش العارفين بالله.

وما إن جلس الباشا على عرش السلطان سليم حتى قرعت الطبول تحت المظلات كما لو كانت تقرع فى الحرب، ثم صافح الباشا أول من صافحه أمير الحج باشا ثم الكتخدا فأبو الكلام وسائر الأمراء ثم انصرفوا، ثم صافح الباشا بعد ذلك أربعون من بكوات الشراكسة وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة والترجمان أغا وسائر شيوخ الديوان وقبلوا يده جميعا.

ثم امتطى الباشا صهوة جواده يتقدمه جميع الأغوات على خيولهم إلى الجامع وتبعه جميع البكوات مثنى مثنى متحازين.

وعندما وصل الباشا إلى جامع قلاوون وفى معيته المحتسب أغا وجلادى الصوباشى وعلى جانبيه جميع الشطار وعلى رؤوسهم الخوذات المذهبة مع حملة البنادق وسقائى ركاب الباشا كانت الشمس فى كبد السماء. وصعد المؤذنون تسع تكبيرات وصلُّوا ركعتى صلاة العيد وعندما اعتلى الخطيب المنبر خلع عليه كتخدا البوابين قباء من الصوف الأبيض، وبينما كان يلقى خطبته كان خدام الباشا يعطرون الجامع بمجامر العود والعنبر والبخور.

وأتم الخطيب وعظه وإرشاده وبعد الفراغ من الدعاء صافح الباشا الإمام والخطيب والمشايخ ونالوا آلاف الـ «پارات» منحة منه.

وعندما استوى الباشا على كرسيه فى ديوان الغورى مع موكب قليل العدد، صفق جميع جاويشية الديوان له وجلس الباشا على رأس سماط عظيم عليه ثلاثة آلاف صحن مذهب ومسك فيه أطايب الطعام، وجلس على يمنته أمير الحج والقائم مقام بك وغيرهم من البكوات، وجلس على يسرته الدفتردار بك وأبو الكلام وأغوات الأوجاقات العسكرية وأغا العزب. أما الجبه جى باشى[1] ورئيس المدفعية ورئيس مركبات المدفعية والمحتسب أغا والصوباشى وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة ورئيس التراجمة هؤلاء كانوا يقومون على خدمة الديوان السلطانى ولم يجلس منهم أحد على السماط مع الباشا.

ثم ألقى الباشا قطعا من الكباب والدجاج والحمام على من بجانبه يتناولون الطعام فمن كان يلبس العمامة المجوزة وقعت عمامته عندما سقطت عليها قطع الدجاج واللحم فكان يكتم ضحكه، ومنهم من كانوا يبتسمون إذا ما تعلقت أجنحة الحمام بلحيتهم وعلى هذا النحو قسم الباشا الطعام على من حوله وعندما قالوا «بسم الله» بدأوا يتناولون الطعام. وفى ساحة ديوان الغورى العظيمة قدم ألفا صحن من الطعام .

وفى الساحة العظيمة لديوان الغورى قدم ١٢٠٠٠ صحن من الطعام التهمها الانكشارية وأرباب الديوان فى طرفة العين، حتى إنه من صوت الآكلين وصوت الأطباق النحاسية سمعت القاهرة ما يشبه الرعد، ثم قام مائتان من خدام موائد الباشا برفع الصحون فكوموا منها تلالا تلالا، ونظفها فراشو الديوان معهم. بعد ذلك دعوا الباشا إلى سماط آخر ودعى إليه كذلك بكوات الشراكسة وشيوخ الأوجقات السبعة ورؤساء السبعة وسبعين إدارة للديوان، وألقى الباشا عليهم كذلك قطعا من اللحم فأسقطت عمائمهم عن رءوسهم وحار البعض فى خجله.

وكان إذا ما قال الباشا «فليجلس رئيس المتفرقة وكتخدا الشاويشية والترجمان أغا»، جلسوا ثم وقفوا وتولوا خدمة المدعوين ثانية، ثم دعو الاختيارية أى القدماء. أما

(١) مسئول الأسلحة والذخيرة.

أغوات الباشا الإثنى عشر أصحاب الخِلَع وحاصل خرج الباشا فقد وقفوا للخدمة. وبعد الفراغ من تناول الطعام نهض الباشا من مكانه وجلس على سجادة السلطان سليم ونهض كذلك جميع البكوات وانتظروا غسل أيديهم، وأثناء ذلك أومأ كتخدا البوابين إلى رئيس فرقة الموسيقى العسكرية حتى يقرع الطبول وصنوجها، وأشار رئيس فرقة الانكشارية لرئيس فرقة المدفعية فى برج القلعة فأطلقت المدافع أربعين طلقة ترددت أصداؤها فى جبل الجوشى.

ومن ناحية أخرى هجم رئيس خدم موائد الباشا مع مائتين من رجاله على ثلاثة آلاف صحن، وبعد الفراغ من ذلك رفعت الصحون وجاء فراشو الديوان بالأباريق النحاسية التى تشبه الذهب وتعود إلى عهد السلطان فرج وقلاوون وقايتباى وقبلوا ما بين قدم الباشا ووضعوا منشفة على ركبته، وقدم إليه أحدهم الصابون المعطر فغسل الباشا يديه وغسل الجميع أيديهم كذلك على هذا النحو، واستكان كل فى مكانه وتلى الدعاجى أفندى[1] قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٤]، وعندما ذكر اسم النبى ﷺ وقف جميع الأعيان والأشراف إجلالا وإعظاما، ولما ذكر سلطان آل عثمان مرتين وقفوا كذلك، ثم أنهى الدعاء وبينما كانوا يمسحون وجوههم بأيديهم وقف جميع البكوات وتقدموا نحو الباشا وهو على السجادة وصافحوه فصفق جاويشية الديوان، ثم صافح الباشا أغوات الفرق السبع، ثم صافحه قدماء الفرق وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة والترجمان أغا، ثم نهض جاويشية الديوان بين جملة أعضائه وسلموا جميعا على الباشا ومضوا إلى بيوتهم.

ودخل الباشا «حجرة العرض»، وجلس على كرسيه فى حجرة قايتباى على رأسه العمامة وبدأ الكتخدا بتقبيل يده فخلع عليه الباشا خلعة من الفرو وجلس ثانية على كرسيه، كما خلع الباشا كذلك ثوبا من صوف وقماش على كل من الشهر حواله وأفندى الديوان والإمام أفندى والمؤذن أفندى والمقابله جى أفندى وكتخدا البوابين وكبير رؤساء البوابين وأغا البريد وأمن بيت المال والحاصل خرج أفندى وأحد عشر من

(١) دعاجى افندى: القائم بالدعاء.

أصحاب الرتب العالية ورؤساء البوابين بحسب درجاتهم وأغوات واجب الرعايا ورئيس المتفرقة وأتباعه ورئيس فرقة الدلاة وأتباعه، ورئيس فرقة الكونكليان أى المتطوعة وأتباعه ونائب نفقات الباشا ورئيس الطهاة ورئيس فرقة الموسيقى العسكرية مع أتباع، وكاتب الخبازين وكاتب بيت المال والكلارجى باشى أى رئيس مخارن طعام قصر الباشا، وسقائى ركاب الباشا وشُطاره ورئيس القائمين على خدمة موائد الباشا وبك اسطبل الباشا مع رجاله وأمين الشعير، وكتخدا الاسطبل ورئيس السراجين ورئيس الجنائب ورئيس الحمالة ورئيس الحَمَّارة ورئيس سائسى الخيل ورئيس حاملى المشاعل ورئيس العكامين وهؤلاء جميعا قبلوا يد الباشا وحظوا بعطفه ورضائه.

أما رئيس فرقة الموسيقى العسكرية ووكيل نفقات الباشا ورئيس الطهاة ورئيس القائمين على موائد الباشا ورئيس حاملى المشاعل هؤلاء الست شرفوا بنيل خلعة من الباشا.

وفى ليلة العيد استمرت فرقة الموسيقى العسكرية تعزف مقطوعاتها حتى مطلع الفجر وزين رئيس خيامية الباشا ميدان القصر بالسرادقات وكان يقوم بالخدمة فيها مائة وخمسون من الخدم، وطهى رئيس الطهاة فى خمسة أيام وخمس ليال خمسة عشر ألف صحن من الطعام وبذل جهدا حتى شوى كأنه كباب.

وحمل كذلك رئيس القائمين على خدمة موائد الباشا مع مائتين من رجاله آلافًا من الصحون، كما قام رئيس حاملى المشاعل بإنارة ميدان القصر فى ليلة العيد تلك بمائتى مشعل، كما أضىء ديوان الغورى بآلاف القناديل، وقد منح هؤلاء خلعا فاخرة لقاء خدماتهم تلك، كما منح كل جاويش من جاويشية الموكب عشرة دنانير ذهبية وكذلك جميع الأغوات وانصرفوا.

- أغوات القصر:

وهم خواص الغلمان. وفى البداية قام شيخ الأئمة والمؤذنين بتقبيل يد الباشا ومن

بعده الخزينه دار أغا والسلحدار والجوقدار والنشانجى[1] والمهر دار[2] وكاتب الخزانة والكلارجى باشى ورئيس مقدمى القهوة وغلام المفتاح ورئيس صانعى عمائم الباشا ورئيس غسالى قصر الباشا ورئيس حاكة قفاطين الباشا ورئيس الحلاقين ورئيس الدلاكين ورئيس الحمامية وكبير حاملى المنشفة والشمعانجى باشى وهؤلاء العشرين من خدام الباشا قبلوا يده وانصرفوا، كما قدم فتيان صباح فى ثيابهم الفاخرة لتقبيل يد الباشا، ثم جاء بعدهم سبعون أو ثمانون من طواشية الزنوج حاملين الهدايا وقبلوا يد الباشا، ومن بعدهم قام رئيس فرقة الموسيقى العسكرية الخاصة بقصر الباشا مع ثلاثين من رجاله بتقبيل يد الباشا. بعد ذلك خلد الباشا إلى الراحة وبعد الظهر أقبل بعض الأعيان والأشراف لمصافحته.

وفى صبيحة اليوم التالى من أيام العيد قدم كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة وأغوات التراجمة وبدأ أربعون من قدامى المتفرقة بزف التهانى إلى الباشا بالعيد السعيد وقبلوا جميعا يده. وفى أثرهم قدم أغوات قصر الباشا وعليهم أبهى الثياب ووزعوا على الحضور مناشف القهوة وخرجوا، وفى أثرهم دخل من قدموا القهوة فى فناجين غاية فى جمالها وزخرفها وانتظروا لأخذ الفناجين، ثم أحضر الخدم المناشف المنقوشة ووضعوها على ركبتى جميع الضيوف وانصرفوا، وفى عقبهم أحضر الخدم الكاسات المذهبة والمزخرفة وفيها الأشربة المعنبرة وشراب الليمون والتمر هندى وما إلى ذلك من صنوف المشروبات وقدموها فى كاسات إلى الأعيان، وبعد أن شربوا ما فيها أمسكوا مناشفهم ومسحوا أفواههم، ثم دخلت جماعة من الخدم وفى يدهم أوعية العطور وماء الورد ونضحوا هذه العطور على أيدى جميع الأعيان وانصرفوا، وجاءت مجموعة أخرى من الخدم ومعهم مباخر العود والعنبر حتى غمروا بعبيرها جميع الحضور. ولم يكن من الجائز عند تقديم البخور ستر الرؤوس بالشال حيث إنه حدث فى بعض المرات أن طعن من يلبس الشال بعض الحضور، والبعض بمجرد أن شربوا القهوة شكوا فى أن يكونوا قد دسوا لهم السم فيها.

---

(١) النشانجى: الذى يتولى التوقيع بطغرا السلطان على ما يصدر من أوراق رسمية.

(٢) مُهْر دار: حامل الخاتم.

ثم انصرف قدامى فرقة المتفرقة وجاء قدامى الجاويشية وهؤلاء جميعا شملهم الباشا بكرمه على نحو ما شمل به من قدموا قبلهم. ثم قدم بعد ذلك قدامى السباهية وحملة البنادق والمطوعة وكرم كل منهم على حسب رتبته وانصرفوا.

ثم قدم رؤساء شاويشية الانشكارية للقاء الباشا ودخلوا عليه قائلين «جئنا لنزف التهنئة بالعيد لمولانا السلطان» وقبلوا يد الباشا ووقف كل منهم فى مكانه وألقوا كلمات التحية والإطراء على الباشا. وهؤلاء كانوا يحظون بمزيد من رعاية الباشا، إذ إن للانكشارية فى مصر مرموق المكانة ومن متقاعدى الانكشارية ممن شغل مناصب كتخدا الانكشارية ورئاسة الشاويشية وقيادة الجيش من يملكون آلاف الأكياس وهم واسعو الثراء إلى حد جد بعيد. وقد انصرفوا بعد أن طيب الباشا خاطرهم، وبعد ذلك قدم رئيس شاويشية العزب واستأذن فى الدخول على الباشا فدخل وفى معيته قدامى فرقة العزب وقبلوا يد الباشا وانصرفوا بعد أن أكرمهم الباشا دون أدنى تقصير.

أما جان بولاد زاده حسين باشا فقد كان يدعو فرق العزب والانكشارية للمثول بين يديه ليهنأهم بالعيد السعيد، وكان ذلك من وقت فى المجاملة. ولشهرة هاتين الفرقتين فإنهما كانتا خليقتين بكل تعظيم.

وقدم بعدهم بعض المشايخ ودخلوا إلى مجلس الباشا قائلين: «عيد شريف مبارك يا مولانا السلطان» ثم انصرفوا. وبعد ذلك طلب الباشا جواده ومضى فى موكب عسكرى وسط عزف الموسيقى العسكرية. هذا هو عرف مصر وما ذكرناه خاصا بموكب العيد.

وفى العيد يلبس جميع الأعيان والأشراف فاخر ثيابهم ويتزاورون جماعات جماعات ويتبادلون التهانى بالعيد، وهذا فيهم فطرة إلهية كما أن ذلك بأمر السلطان وفى تلك المناسبة، لا يشرب أى مشروب فى القاهرة إلا بوزة الأرز التى يسمونها «السوبية» وقد سبق الحديث عنها آنفا. إلا أنهم فى تلك الأيام يجهزونها قبل ثلاثة أو أربعة أيام ويضيفون إليها السكر والقرفة والقرنفل. وهى شراب مقو نافع مرطب لا وجود له إلا فى مصر.

وتدوم مظاهر الاحتفال والبهجة فى العيد الشريف ثلاثة أيام بلياليها.

وفى ميادين الروملى وقره ميدان وميدان حارة أمير اخور وميدان مصر العتيقة وبولاق وخارج باب الناصر وحى عابدين وعدة مئات من ميادين القاهرة تنصب آلاف الأراجيح التى يركبها الصبيان والفتيات.

لنذهب إلى مكان العيد وفيه الأراجيح نشهد وما مرآة الزمان أبدت.

أى يخرج من يخرج لمشاهدة الجمال والترويح عن نفوسهم.

وإذا ما شاهد قريب أو غريب حسناء اقترب منهـا وزف إليها التهانى بالعيد واستطاع أن يقول لها كل ما يريد. وهذا فى عرف أهل مصر ليس عملا شائنا.

وثمة شىء يحمل فى طياته العبرة وهو أن مصر فى أيام العيد تلك يكثر بها الأوباش والرعاع إلا أن النساء والأطفال يسيرون زرافات زرافات ولا يتعرض لهن أحد بأذى فالأمن مستتب تماما.

وإذا ما وجد من يسير فى الطريق العام ثملا قبض عليه وانهالوا عليه ضربا بعصيهم وركلوه بأرجلهم. فظهور الشخص وهو ثمل شىء معاب كثيرا. وإذا ما شوهد مضوا به إلى الشرطة فينفوه إلى قبرص أو إلى قلعة صاى على أطراف بلاد الفُونج . إن السير فى الطريق العام فى حالة سكر مما يثير غضب الناس ونفورهم.

وفى العيد الشريف يتزاور الناس ويركب الفتيان على جيادهم وهم فى سراويل حمراء متجولين من قرية إلى أخرى. واللسان يعجز عن وصف هذا العيد الشريف وموكبه.

الموكب الخامس وهو موكب عيد الأضحى

وفى عيد الأضحى من يوم عرفة إلى آخر الأيام الثلاثة التى تتلو يوم عرفة يكبر المشايخ والدراويش إلى وقت العصر ويتزاورون قائلين لبعضهم البعض: «يسر الله تعالى عرفات فى أيام التشريق» ويتصافحون.

ولما كانت الولاية على مصر لكتخدا إبراهيم باشا نحرت ٥٠٠٠٠ من الغنم والجاموس والجمال وهذا مدون فى دفتر أمين الغنم.

ويزدحم الناس فى المدينة وكأنهم البحر وهكذا تكون الحال فى عيد الأضحى وتعم فيه البهجة أكثر مما تعم فى عيد الفطر. وهذا ما يعجز عنه الوصف.

***